صيامٌ كهذا

ذات ليلةٍ شعر هارون الرشيد بالضِّيقِ والمَلَلِ، فذهب برفقة وزيرِهِ إلى الفُضَيل بنِ عياض.. قرعَ الباب فردَّ الفُضيل:

ـ من بالباب؟

أجاب الوزير:

ـ أميرُ المؤمنين.

ـ لماذا سيأتي أمير المؤمنين إلى هنا، وما الشيء الذي سيأتي من أجلِهِ عندي، وما الشيءُ الذي يمكنني أنْ أقدِّمَه له؟ اذهبا ولا تشغلاني!

ـ سندخل.. فخذْ لنا الإذْنَ من أهلك.

وتحت إصرارِ الوزير فتح الفُضيلُ الباب.

كان الفُضيل يشعل ضوءاً خافتاً في حجرتِهِ، ويتعبَّدُ ربَّه.. اقتربَ من الخليفة وهو يَتَفحَّصُ يديه قائلاً:

ـ كم هي طريَّةٌ وناعمةٌ هاتان اليدان؛ فقط إن سلمَتَا من النار!

بكى الخليفةُ هارون الرشيد عندما سمع هذا الكلام وقال له:

ـ يا شيخي؛ إنَّني متضايقٌ كثيراً، فهل لك أنْ تنصحني بشيءٍ يريحني؟

أجاب الفُضيلُ بنُ عياضٍ هارونَ الرشيد الخليفةَ العباسي:

ـ أيها الخليفة؛ لقد تأخَّرتَ في طلب النصيحة، في حين؛ جدُّكَ العباس رضي الله عنه قال: «مُرْني يا رسول الله؛ أنا وقومي». فقال له ﷺ أن الأمر.. النَّدمُ يومَ القيامة، وهكذا أخذ العباس الجوابَ، وأنت ركضتَ إلى الأمر!

دُهش الخليفة، ولكنَّه أصرَّ على طلب النصيحة، وتوسَّل إلى الفضيل أنْ لا يردَّهُ، فأجاب:

ـ في زمن الخليفة العادل عمرَ بنِ عبدِ العزيز رضي الله عنه نادى أصدقاءه سالمَ بنَ عبدِ الله وكعبَ بنَ رجا وقال:

ـ يا أخوتي! لقد تورطْتُ في هذا الأمر؛ الكلُّ يرى الإمارةَ نعمة، وأنا أراها نقمة، أرجوكم ساعدوني.

فأجابه أصدقاؤه:

ـ إذا أردْتَ النجاةَ من العذاب يومَ القيامة، فيجب عليك أنْ تعامل الناس وأطفالَ المسلمين وشبابَهُم كما تعامِلُ أولادَكَ، وأنْ تعامِلَ الكبارَ والشيوخ مثلَ والدِكَ، وعامِلْ شعبكَ بالحسنى، واعتبرْ أنَّ الدنيا يومُ صيام، وموتُك هو إفطارُك، سيحاسِبُ الله الناس فرداً فرداً يومَ القيامة.

تابع الفضيل نُصْحَ الخليفة، ولكنَّ قلب الخليفة لم يعدْ يحتمل، وأراد الخروج، فسأله عند خروجه:

ـ يا شيخ؛ هل لك دَينٌ نقضيه عنك؟

ـ دَيني تقصيري في طاعة الله.

ـ أقصد الناس؟!

ـ الحمد لله ليس عليَّ دَينٌ لأحد.

أراد الخليفة أنْ يعطيَهُ ألفَ قطعةٍ ذهبيةٍ، فقال الفضيل:

ـ أرى أنَّ النصيحةَ لم يكنْ لها تأثيرٌ عليك؛ أنا أدعوك إلى الآخرة، وأنت تدعوني إلى الدنيا.

قال هارون الرشيد وهو خارجٌ من عند الفضيل:

ـ هذا هو سلطان الآخرة.

❁ ❁ ❁

إنَّ الذين يحافظون على قيمة العلم وعزَّتِه لا يتوسَّلون أحداً، ولا يتمنَّون، ولا ينتظرون شيئاً أو منفعةً من أحد، وإذا تكلَّموا ونصحوا فيكون قصدُهُمْ رضى الله تعالى. لا يسْعَونَ وراءَ الإمارة؛ بل يتهرَّبون منها!

ذات مرةٍ كان الخليفةُ العباسيُّ هارون الرشيد يطوف حول الكعبة، فقال له أحدُ الطائفين:

ـ أيها الخليفة؛ سيحاسبُ الله الناسَ يوم القيامة على أعمالهم، أمَّا أنتَ فسيحاسبك عن كلِّ نفسٍ من أمَّتِكَ.

وعند سماعِ الخليفةِ لهذا الكلام أغشي عليه وارتمى أرضاً.

لم يستطع الخليفةُ العادل عمر بن عبد العزيز تحمُّلَ المسؤولية الكبيرة أكثرَ من سنتين فمات رَحِمَهُ اللَّهُ.